ا ذا كان البعد الاجتماعي ـ الاقتصادي جزءا لا يتجزأ منها، واذاكانت محرضا للتفاعل مع التطور والتقدم، من جهة، وللانفتاح على القوى التقدمية في العالم من جهة اخرى؛ ولا يتحقق ذلك الا اذا كانت الطبقة العاملة، هي التي تقود التيار الوطني والقومي.

الدين ايضا كان عامل تقدم في فترة اليقظة العربية، ونحن نذكر طبعا تأثير اعلام مثل جمال الدين الافغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وغيرهم. وفي مرحلة الكفاح من اجل الاستقلال كان الدين يساعد في تعبئة القوى الوطنية ضد المحتل؛ لكن بعد مرحلة الاستقلال صار الزعماء الاقطاعيون، او الكومبرادوريون، يحاولون التستر بالدين، لاخفاء سلوكهم اللاوطني، والمعادي للشعب. وكانت الرجعية بمقدار ما تُحاصر تزيد في استعمال ورقة الدين، واستغلالها. كذلك الرجعية العالمية، كانت الورقة الدينية اساسية بالنسبة لها، الآن ومن قبل. لقد اعتمدت في المرحلة الاستعمارية كثيرا على البعثات التبشيرية في مختلف بلدان العالم الثالث، غير المسيحية، واعتمدت على الصهيونية (وهي حركة دينية رأسمالية) من أجل خلق بؤر تجسسة في اوروبا الشرقية والمانيا، قبل الحرب العالمية الاولى، ومن أجل خلق تيار سياسي، قابل للتحرك في مصلحة الرأسمالية اليهودية الاوروبية (عائلة روتشيلد وحلفائها)، ثم فيما بعد من أجل خلق أداة للغزو الابيض الجديد في الشرق الاوسط، لصالح الرأسمالية الامريكية، وخصوصا اليهودية منها. ومن جملة ما تعتمد عليه الرجعية العالمية الآن التحريك باسم الكاثوليكية في البلدان الاشتراكية وفي امريكا اللاتينية وفي اسبانيا، اي حيث يفيد هذا التحريك، من اجل خلق ثورات مضادة، او تكريس اوضاع رجعية قائمة؛ وكذلك التحريك باسم الاسلام في بلد مثل الباكستان.. الخ.

تعتمد الرجعية العربية، ايضا، على التحريك الديني الطائفي في كل مكان تقريبا، فالرؤساء مؤمنون، وبزخم ايمانهم يزورون القدس، ويفتتحون المهزلة المعروفة، والملوك شديدو التقى والورع، لدرجة يؤلفون فيها جزءا لا يتجزأ من النفوذ الامريكي في المنطقة؛ وزعماء الاحزاب والكتل مؤمنون لدرجة التصوف، ولدرجة يرحبون بها بالقنابل الاسرائيلية فوق عواصمهم.

الدين هو قوة روحية، وهو عامل تقدم، ايضا إذا لم يؤلف قوة شد الى الوراء بسبب استغلال القوى الاقطاعية والكومبرادورية له. إنه عامل تقدم، إذا دعمت به الجماهير حركتها الى الامام، وانتزعته من يد الرجعيين كسلاح، وترجمت مفاهيمه العامة والاساسية في النضال من اجل العدالة والسلام، الى نضال من اجل بناء المجتمع اللاطبقي، الذي يتساوى فيه الجميع، ومن اجل الانفتاح على الآخرين، وعلى العالم.

نرى إذن، أنه يمكن ان تطرح الشعارات القومية والدينية من قبل الرجعية المحلية، والعالمية، لاهداف تختلف جذريا عن الجوهر الوطني والاخلاقي، وعن جوهر الايمان، المتمثلين في القومية والدين. ولعل الخدعة اصبحت واضحة: «نحن ندعوكم لا إلى قومية تحرركم، ولا الى دين يصفي نفوسكم ويطهركم، وإنما الى قومية (عرفتموها في الماضي) وتكرس وجود الاوضاع الراهنة، المتمثلة في السيطرة الاقطاعية، او الكمبرادورية، والى دين يكرس بصورة خاصة الزعامة الاقطاعية والانقسام الطائفي في المجتمع». إذا لم يذكر الهدف، تبدو الدعوة بريئة، وتدغدغ، إما التعصب القومي الشوفيني، او التعصب الديني، او الاثنين معا، وعلى الزعامات الكامنة وراء الدعوة استكمال الباقي.

اذا رجعنا الآن بعد الاستطراد، الذي قمنا به، الى الاطروحات الاساسية، نستطيع ان نتلمس الخطر الكامن فيها.

ان التحالف مع الولايات المتحدة، الذي تنبع عنه ضرورة التحالف مع اسرائيل، هو موجه ضد كل القوى التقدمية في المنطقة، سواء كانت منظمة، ام غير منظمة، وسواء كانت واضحة في تقدميتها، ام غير واضحة، وسواء كانت في موقع مفيد مرحليا للرجعية، ام غير مفيد.